جامعة القاهرة
كلية دار العلـوم
قسم الفلسفة الإسلامية

قضية الظاهر والباطن بين الشيعة والصوفية

دراسة تحليلية نقدية مقارنة

من القرن الثالث الهجرى حتى القرن السابع الهجرى

بحث مقدم من الطالب

محمد عبد الوهاب محمد غانم

لنيل درجة الماجستير

تحت إشراف/ الأستاذ الدكتور

السيد رزق الحجر

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة
ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية الأسبق

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى نبع الحنان وبستان الرحمة ، وسبب كل خير في حياتي ، **إلى والِدَيّ؛ أمي وأبي** ، وإذا كنتُ بعضَ كسبِهما ، فإني أهدي هذا العمل المتواضع إليهما عرفانا بحقهما ، ووفاء لفضلهما، وأسأل الله عز وجل -برحمته- أن يبارك فيهما ، وأن يجعل لهما بكل حرف فيه نورا وضياء في الدنيا والآخرة ، وأن يجزيهما عني خير الجزاء.

* شكر وتقدير *

قال رسول الله : **«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»**. لذا فإني لأرى لزاما عليَّ أن أتوجه بخالص الشكر ووافر الثناء إلى هذه الكوكبة النيرة من الأساتذة الأجلاء، الذين مدوا إليَّ يد العون في إعداد هذا البحث ، حتى اكتمل واستوى على سوقه.

وأخص بالشكر أستاذي العالم الجليل/ السيد رزق الحجر، رئيس قسم الفلسفة الأسبق– بكلية دار العلوم– جامعة القاهرة، على ما أولاني من رعاية واهتمام بالغين، فقد لمست فيه دماثة الخلق، ورحابة الصدر، وتوجيه المعلم، وشفقة الوالد. فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أزجي خالص الشكر والتقدير إلى الأستاذين الجليلين اللذين شرفتُ بقبولهما مناقشة هذا البحث وتقويمه، وتجشم عناء مراجعته، كل من أستاذي الجليل الدكتور/ عبد اللطيف محمد العبد، أستاذ الفلسفة الإسلامية، ووكيل الدراسات العليا والبحوث الأسبق بكلية دار العلوم– جامعة القاهرة والأستاذة الفاضلة الدكتورة/ مرفت عزت بالي، أستاذ الفلسفة، بكلية آداب – جامعة حلوان، فلهما مني الشكر والثناء. وأعدهما أن تكون ملاحظتهما نصب عيني.

كما أتقدم بتحية إعزاز وتقدير إلى أساتذتي الأفاضل بقسم الفلسفة الإسلامية– كلية دار العلوم على توجيهاتهم لي في طريق البحث، وأخص بالذكر هنا: الأستاذ الدكتور/ محمد السيد الجليند. فقد كان فضيلته سببا في إرشادي لموضوع البحث والاهتمام به.

والأستاذ الدكتور/ عبد الحميد مدكور، الذي كان يمدني دائما بالنصائح العلمية الغالية، فكانت لي نبراسا في طريق البحث العلمي.

وأخيرا أقدم شكري لكل من ساعدني في إتمام هذا البحث بداية بالدعاء، ومرورا بإعارة كتاب أو بحث وانتهاء بكتابة البحث، ومراجعته وطباعته، حتى خرج البحث على هذه الصورة.

فللجميع مني كل الشكر والتقدير، واللهَ عز وجل أسأل أن يكتب لي ولهم الأجر، ويجزل لنا المثوبة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدَ عباده الشاكرين، فإن مبدأ الحمد ومنتهاه لله الواحد لا شريك له، سبحانه له الحمد الحسن والثناء الجميل، تباركت ربي وتعاليت، لا أحصي ثناء عليك، أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك.

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وسلم تسليمًا كثيرًا. وبعد:

فإن النبي ترك المسلمين على المحجة البيضاء الواضحة لا يزيغ عنها إلا هالك، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ولم يترك شيئا يحتاجه المسلم ليقربه من الله- عز وجل – إلا وقد بلغه، ولم يدع شيئا يباعد المسلم عن ربه أو يعرضه لسخطه وغضبه إلا وحذر منه ونهى عنه، وقد منَّ الله – عز وجل – على أقوام اختارهم ليكونوا أصحابه، عاصروا نزول الوحي، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل نصرة الدين. وقد حملوا العلم عن رسول الله ، فظهر بينهم المفسر والمحدِّث والفقيه، ليقوموا بمهمة حمل الدين وتبليغه، ليخرجوا الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم جاء جيل التابعين، فورث عن الصحابة العلم والعمل، فكان الطابع العام للمنهج المتبع في جيل الصحابة ثم التابعين– في القرون الثلاثة الأولى– هو منهج الاتباع والاقتداء بمنهاج النبوة اعتقادا وتطبيقا عمليا.

ثم حدث في أواخر القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع أمور نأت عن منهاج النبوة، فظهرت عقائد غريبة عن الإسلام، فبعد أن أطلت فتنة

الخوارج برأسها التي بدأت في عهد علي رضي الله عنه، نجد أنه قد تلتها بدعة التشيع – فكان التطرف والبعد عن وسطية الإسلام باعتبارها رد فعل لتطرف الخوارج، ثم واكب ظهور التشيع ظهور التصوف، وما حدث فيه من بدع وانحرافات عقدية. فصارت الأمة شيعا، وبات الغلو هو السمة الغالبة على فكر هؤلاء المنحرفين.

وفي غضون ذلك ذهبت كل فرقة تتجاذب نصوص الشرع في إثبات عقائدها، وهنا نمت فكرة الظاهر والباطن، حيث لجأت كل فرقة إلى نصوص القرآن الكريم تتأوله بما يتوافق وعقائدها التي آمنت بها واعتنقتها.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نجلي المراد من عنوان البحث:

« قضية الظاهر والباطن بين الشيعة والصوفية ».

أولا: الظاهر والباطن:

نستطيع أن نفهم مدلول مصطلح الظاهر والباطن من خلال مستويين:

المستوى الأول: هو رؤية كل شيء من خلال وجهين، ظاهر وباطن، فكل محسوس له ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع عليه الحواس، وباطنه ما يحويه، وكل شيء في الكون يخضع لهذه الثنائية، وهي رؤية عامة لا تختص بشيء دون شيء.

المستوى الثاني: وهي رؤية أخص من السابقة، وأعني بها رؤية النصوص الشرعية على وجه التحديد، من خلال ما أسموه بـ (الظاهر والباطن) حيث ادعى أصحاب هذا المنهج أن الدين رموز وإشارات إلى حقائق باطنة، وأن وراء المعاني الظاهرة للنصوص الشرعية معنى باطنا، فظواهر النصوص

عندهم لها باطن يجري من الظاهر مجرى اللب من القشر، ويدعون أن لكل تنزيل تأويلا، ولكل ظاهر باطنا، ويجعلون تحت ستار هذا الباطن، أو الحقيقة، أو اللب، ما يشاءون من عقائد ونظريات فلسفية، ليفسروا بها النصوص الشرعية.

وعن طريق هذا المستوى حاولوا أن يجدوا دليلا من القرآن أو السنة لكل قول من أقوالهم، ونظرية من نظرياتهم أيًّا كانت.

وفي سياق البحث سيتعرض الباحث لهذين المستويين، سواء وجدا معا، أو وجد أحدهما دون الآخر، وإن كان المستوى الثاني هو الأغلب، وهو أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر نظرية «الظاهر والباطن».

ثانيا: بين الشيعة والصوفية:

ولبيان المراد من هذا الجزء من العنوان أشير إلى عدة نقاط:

أولا: أن مدلول كلمة الشيعة هنا أعني به «الشيعة الإسماعيلية» على وجه الخصوص، وليس كل فرق الشيعة، ويرجع السبب في ذلك إلى أننا إذا استبعدنا أن نحصر فرق الشيعة التي اتخذت من فكرة «الظاهر والباطن» منهجا في تأويل النصوص تأويلا بعيدا يوافق الأهواء والأغراض في فرقتين كبيرتين: الأولى: هي فرقة الإسماعيلية، ولها ألقاب كثيرة منها الباطنية، القرامطة، الخُرَّمية، السبعية، المحمرة، التعليمية. الفرقة الثانية: هي الاثنا عشرية.

وقد اخترت أن أحدد نطاق البحث في التشيع الإسماعيلي الباطني لعدة أسباب، منها:

أن قضية الظاهر والباطن على الرغم من استخدامها في التشيع الاثنى عشري، إلا أنها قد استخدمت على نطاق أوسع بكثير في التشيع الإسماعيلي،

بحيث إن الناظر يستطيع أن يدرك بيسر وسهولة أن فكرة الظاهر والباطن هي الركيزة الأساسية في تثبيت عقائدهم، وهي كما يطلق عليها الباحث الباطني د. مصطفى غالب «الشريان الحيوي» الذي يمد كل عقائدهم وأفكارهم الفلسفية. ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه القضية عند الشيعة الإسماعيلية على وجه الخصوص.

أن دراسة قضية الظاهر والباطن عند الشيعة الإسماعيلية فيها من وعورة الطريق، ولأواء البحث عن مؤلفاتهم ما يجعل من البحث في عقائدهم، ودراسة قضية الظاهر والباطن، ثم تثنيتها بدراسة القضية عند الشيعة الاثني عشرية، ثم بعد ذلك دراسة القضية في مجال التصوف ببحاره الزاخرة، كل ذلك يجعل بحثا كهذا أمرا بالغ الصعوبة أن تتسع دراسة واحدة لهذه الفرق الثلاث، حيث إن دراسة كل فرقة من هذه الفرق الثلاث من الممكن أن تخرج في رسالة مستقلة بذاتها، لذلك فقد كان العزم على التركيز في دراسة القضية عند الشيعة الإسماعيلية؛ لأهمية القضية ومكانتها عند هؤلاء الإسماعيلية، التي تعد وجها بارزا من وجوه التشيع المعاصر، ثم التثنية بدراسة القضية عند الصوفية، وأخيرا عمل خاتمة يتم فيها المقارنة بين الفرقتين، في محاولة للوصول إلى نتائج أرجو أن تكون جديدة في مضمار البحث العلمي.

ثانيا: المقصود من الصوفية في هذا البحث، ليس هؤلاء الصوفية من الزهاد الأوائل الذين قرأنا عنهم في أعلام القرنين الأول والثاني الهجريين، والذين دانوا بما وجدوا عليه السلف الصالح، بل أعني بهم أولئك الصوفية الذين تكلموا في التوحيد والفناء والمحبة بأمور مبتدعة، حتى تطور الأمر عندهم إلى معانٍ لم تخطر على بال السلف من الحلول والاتحاد، حتى وجدنا منهم من يتخذ

لفظ «العشق» في حديثه عن حب الله عز وجل ومن أسماء المحبوبات «لبنى» «وسعدى» رموزًا يشير بها إلى الله عز وجل.

ثالثا: لعل هذا الغلو الصوفي قد اتخذ خطواته في القرن الثالث الهجري على يد أولئك النفر من الصوفية أمثال أبي يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ)، والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ)، حتى وصل الغلو مداه، وبلغ الابتداع منتهاه على يد محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) ومدرسته الواسعة في عالم التصوف.

ويلاحظ أن بداية هذه الفترة الزمنية، وهي منتصف القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري، مثلت مواكبة غريبة في ظهور موجة الغلو والابتداع واشتدادها عند الشيعة والصوفية في آن واحد، لذلك كله تم تحديد فترة البحث في هذه القضية عند الشيعة الإسماعيلية والصوفية ببداية القرن الثالث الهجري.

أما عن تحديد انتهاء الفترة الزمنية بالقرن السابع الهجري، فيرجع السبب في ذلك إلى أن القرن السابع كان يمثل أوج نضوج الأفكار عند الشيعة والصوفية، فكبار منظري الإسماعيلية وجدوا في القرن السابق على القرن السابع الهجري، أما في التصوف فإن منظريه الكبار وأصحاب اليد الطُولى في تحوله إلى مذهب فلسفي تجريدي له أصوله وقواعده، كانوا من أهل القرن السابع الهجري، فابن عربي ومدرسته في وحدة الوجود، وابن سبعين ومدرسته في الوحدة المطلقة – ونحن نعلم ما كان لهما من التأثير الطاغي في عالم التصوف- كانا من أهل القرن السابع الهجري.

وبعد أن استقرت الأفكار الفلسفية عند الإسماعيلية والصوفية في القرن السابع الهجري، صار التصنيف عند الفرقتين مجرد شروح وتلخيصات لما سبق وأن استقر قبل ذلك، إلى جانب أن الطرق الصوفية انتشرت بعد هذا القرن، واعتمد أربابها على ما كان سائدا حتى القرن السابع من أفكار ونظريات أرساها أساتذتهم الأوائل. لذلك كله حددت نهاية فترة البحث بالقرن السابع الهجري.

* * *

أما عن دوافع اختيار موضوع البحث:

أولا: أن الباطنية الذين اتخذوا منهج التأويل الباطني لنصوص الشرع، سواء أكانوا من الشيعة الإسماعيلية أم كانوا من الصوفية، لا يزالون موجودين بين أظهرنا، ينشرون بدعهم وانحرافاتهم العقدية، ويحاولون ترويج تأويلاتهم الباطنية؛ لأنها الملاذ الوحيد لهم في إثبات باطلهم، ومن ثم نشأت الرغبة في بيان مدى بطلان عقائدهم، من خلال نصوصهم أنفسهم، بعد وضعها في ميزان الكتاب والسنة، (لِيَهْلِكَ مَنْ هلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ ويَحيَى مَنْ حَيَّ عَن بيِّنَة).

ثانيا: لا غرو أن تعد قضية الظاهر والباطن من أخطر القضايا في الفكر الإنساني بعامة والإسلامي بخاصة، فهي المدماك الرئيس الذي يغلف عقائد الباطنية من شيعة وصوفية، فيكوِّنون من نسيجه ستارا يستخفون وراءه، ويتخذون منه ذريعة لنشر معتقداتهم الفاسدة المناقضة لشريعة الإسلام، وقد اشتركت الصوفية مع الإسماعيلية في اتخاذ هذا المنهج الباطني، ولم تتلاق أفكارهما فحسب، بل وجدتُ أنهما كثيرا ما اشتركا في عرض نفس النص في التدليل على قضية ما، وتأويله تأويلا باطنيا متكلفا. وعلى الرغم من ذلك لم تفرد دراسة علمية مفصلة تتناول قضية الظاهر والباطن عند الشيعة الإسماعيلية، وعند الصوفية، مع عمل مقارنة بين عقائدهما وطريقة تناولهما لنصوص الشرع.

ثالثا: أن موضوع البحث ليس من قبيل الفلسفة الفكرية الباردة، بل هو موضوع يرتبط بالواقع العملي لحما ودما، ولعل ما لاح من تطورات سياسية في السنوات الخمس الأخيرة، غيرت خريطة العالم الإسلامي، قد أعطتنا إشارة إلى أهمية هذا الموضوع وواقعيته، فلقد علا صخب الصوت الشيعي، ونشط في

محاولة تغرير العامة، حيث يركز على الدخول إليهم من باب حب آل البيت رضي الله عنهم، كما هي طريقة الشيعة من قديم، وفي غضون هذا زاد عمل الشيعة الإسماعيلية في نشر مذهبهم في بقاع كثيرة من أنحاء العالم، إلى جانب أن معظمهم من أصحاب المال والاقتصاد، وبين الشيعة والصوفية خيوط مشتركة، وأرضية واحدة يقفون عليها، وإذا كانت الشيعة تريد لمذهبها الانتشار بين عوام الناس، وليس ثم طريقة أسرع ولا أيسر من اتخاذ التصوف مرقاة في سبيل ذلك(*) وفي ظل هذه الأحداث كلها نمت ضرورة التركيز على دراسة عقائد الشيعة والصوفية وما بينهما من علاقات، وذلك من خلال هذه القضية الخطيرة «الظاهر والباطن».

* * *

(*) وقد صرح المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر في نشرة سرية له أن الشيعة يريدون أن يدخلوا مصر تحت غطاء من المجلس الأعلى للطرق الصوفية، وستكون النواة مكتبة تؤسس في حي الأزهر بواقع عشر ملايين جنيه، تقوم عليها الطرق الصوفية في الظاهر، ويحركها الشيعة في الباطن.

المنهج المتبع:

أما عن المنهج الذي اتبعته في البحث فهو المنهج التحليلي النقدي المقارن، حيث حللتُ عقائد كل فرقة تحليلا عمليا استقرائيا، عن طريق حصر النصوص والمعلومات المتعلقة بالقضية موضوع البحث، مع التركيز على تتبع نصوص الفرقتين من كتبهم ومؤلفاتهم المعتمدة، والتي لا يتطرق إليها الشك، سواء في المحيط الإسماعيلي أو في المحيط الصوفي، ثم بيان موقف قضية الظاهر والباطن من هذه العقيدة، من خلال ذكر نماذج من التفسيرات الباطنية المتكلفة عند الإسماعيلية والصوفية.

ثم بعد ذلك أقوم بتعقيب أنظر فيه نظرة عامة على المبحث كله، وأنقد ما ذكر فيه من شبهات وقضايا تحتاج إلى بيان لموقف الشرع منها.

وقد تم ذلك كله على النحو التالي:

- قراءة كتب الإسماعيلية على حدة، واستخراج النصوص التي تشرح وتبين عقائدها، وعرضها عرضا موضوعيا أمينا، دون زيادة أو نقصان.

- عمل ما أسميته بـ(التعقيب)، وهو تعليق أناقش فيه هذه العقيدة التي تم ذكرها في المبحث، وأذكر فيه موقف الكتاب والسنة من هذه العقيدة دون إفراط أو تفريط.

- قراءة كتب الصوفية، واستخراج تلك النصوص التي تشرح عقائدها وتفصل أفكارها، مع الحرص على عرضها– كما قمت عند الإسماعيلية– أمينا دون تدخل الأهواء الشخصية.

- القيام بـ(التعقيب) على كل مبحث لبيان موقف الشرع من هذه العقيدة، ثم لبيان رأي الباحث الذي رجحه من خلال ما توافر لديه من أدلة توافق الكتاب والسنة.

- التركيز على رجال التصوف، وبيان مدى قربهم من الفكر الشيعي الإسماعيلي، ثم عمل مقارنة بين عقائد الشيعة الإسماعيلية والصوفية.